سميح القاسم

يد فى الظلام الثقيل
تشد يدًا ...
فى الظلام الثقيل ...
تضىء السبيل ...
وصية جيل ...
لجيل ...
لجيل ...

(كتاب المنفى - الأبواب السبعة)

شظايا على وشك الانفجار(*)

هـــى المرة الأولى التى يزور فيها سميح القاسم القاهرة .. بل هى المرة الأولى التى يخرج فيها من (الأرض المحتلة) بعد أربعين عامًا من الاحتلال ، إلى دولة عربية .

حدث ثقافى لا شك .. وحدث سياسى أيضًا ، لكن المؤكد أنه حدث إنسانى أساسًا .. فهذه المحبة التى راح المصريون كتاب ومثقفون يستقبلون بها سميح لافتة .. وهذا الشوق الجارف حمله سميح القاسم أربعين عامًا من الغياب أو ٧ آلاف عام بعمر القاهرة على حد قوله .

طفل فى الخمسين من عمره . . بسيط ، متواضع ، ودود وإنسانى للغاية . . عندما وقف محمود درويش (بعد أن زلزلت زيارة سميح مشاعره فقرر أن يجاهر بإنسانيته العميقة علنًا) عندما وقف درويش يقرأ (**أسميك نرجسة حول قلبى**) تلك القصيدة التى كتبها منذ سنوات إلى سميح القاسم . . لم يستطع سميح تحمل القصيدة ، فراح على المسرح يخبئ دموعه التى تناثرت منفلتة حوله ولم تنضبط . . ودرويش يؤكد :

لا شىء يثبت أنى أحبك غير الكتابة
أعانق فيك الذين أحبوا ولم يفصحوا بعد عن حبهم
أعانق فيك تفاصيل عمر توقف فى لحظة لا تشيخ

(*) جريدة الأهالى - القاهرة ٣٠/ ١١/ ١٩٨٨م .

شظايا على وشك الانفجار . . هذه ببساطة صورة سميح القاسم، وهو يقرأ قصائده . . يتأرجح جسمه . . يخبط بقدميه الأرض وبيديه الهواء . . يندفع أحيانًا بشكل متلاحق فى طريق القصيدة القاطعة مصفقًا ، لكنه لا يتوقف ولا يستعيد أبيات القصيدة التى تضيع سطورها بين التصفيق الحار . . إنه يواصل إشعال نيرانه ، دون أن يستطيع أحد وقف هديره .

فى اللقاء معه والذى حرصنا جميعًا بالقسم الثقافى على حضوره محبة وتقديراً لضيف ضيوف مصر . . لم ينتظر سميح استكمال السؤال ولم ينتظر أحيانًا السؤال . . إنه يريد أن يتكلم ، أن يلقى أمامنا بما فى داخله . . حالة من البوح والانتشاء إلى الحد ، الذى أصابته رغبة شديدة معلنة للطيران فى طقس القاهرة الجميل !

حكاية هنا وحكاية هناك . . ربما وضع دوائر حول الدوائر وراح يلقى على نفسه بعض الأسئلة . . يواصل ضحكاته وحسه الساخر اللاذع بمفردات شعبية مصرية تظنه عاشها عمره كله . ومع كل جملة أغنية وذاكرة وذكريات . . وأم كلثوم التى شغلته منذ قصائده الأولى :

أم كلثوم اطمئنى

يصبح الحزن - متى غنيت

حزنين اطمئنى

اندهش سميح وهو ينظر إلى الشارع المصرى . .

كل هذه الأبراج . . والعمارات الضخمة . . كل هذه الوجوه وهذه الإعلانات واللافتات عربية .

كل هذا الكم من العروبة يحدث لى لأول مرة من أربعين سنة .

- إحساسك هذا فرحة أم مرارة ؟

هو شعور مختلط ، لاشك هناك فرح لكن لاشك هناك مرارة . . مرارة أنى غبت أربعين سنة . . سرقت أربعين سنة . . زورت روحى أربعين سنة . . فلماذا اندهش لأن عمارة كل سكانها عرب . . هذا الإحساس هو الظلم التاريخى فلماذا لا يكون شعورى طبيعياً !!

- إذاً لماذا تأخرت عن اللقاء أربعين سنة ؟

سؤال غريب . . التأخير ليس منى . . أنا ضحية هذا الغياب وضحية هذا التأخير . . أنا الذى أطرح السؤال . . لماذا كان يجب أن أنتظر أربعين سنة حتى أزور دولة عربية ! ولن يجرؤ أحد على إجابتى ، لأن كل جواب سيكون حقيراً ولئيمًا وكاذبًا . . سرقت منى القاهرة أربعين ، وكأنما لا يكفى حيفا ويافا والقدس ، وكأننا كان يجب أن نقدم هدية أخرى . .

ربما كانت هناك دائمًا اعتبارات سياسية . . الوضع الراهن والوضع الدولى إلى أن قررت فى لحظة أن أقول (طظ) لا يعنينى فى هذا الأمر كامب ديفيد ولا إسرائيل ولا الحلف الأطلسى ولا جامعة الدول العربية . . هكذا قررت بأنانية مفرطة وذاتية طفولية أن أزور القاهرة . . ولو أتيح لى زيارتها بالشهر القادم والذى يليه والذى يليه سأزورها . . فليس لأحد الحق فى القاهرة أكثر منى .

- أربعين عامًا من التناقض .. كيف احتملتهم .. كيف استطعت أن تكون فلسطينياً بجواز سفر إسرائيلى ؟

أنا جمل صحراوى من مواليد برج الثور ، ولهذا بطبعى عنيد ومتحد . . غير أن هذه الازدواجية أو هذا التناقض هو جزء من مجمل

المأساة الفلسطينية . . هذا جزء من الثمن . . نحن ندفع أجرة شهرية لحياتنا مرة بالعملة اليمنية أو انتونسية أو الأردنية أو حتى الإسرائيلية .

بالمناسبة أول سودانى أشقر وعيونه زرق كان فلسطينياً . . إنها لوحة سريالية . . فلسطينى يحمل جواز سفر أردنى ، ويعيش فى تونس . . أو فلسطينى يحمل جواز سفر إسرائيلى ليعيش فوق أرضه .

الدولة والوطن

- ما موقفك من إعلان الدولة الفلسطينية ؟

دون شك كان لابد للانتفاضة من بعد سياسى ومن تحرك سياسى يعطيها معناها الكبير . . وليست الانتفاضة كما تصورها أجهزة الإعلام على أنها هبة دينية أو احتجاج على أوضاع اقتصادية ، ولكنها تعبير صارخ لشعب يريد أن يستقل .

لكنى بداية أرجو التمييز بين الدولة والوطن . . فقيام دولة على جزء لا ينفى الوطن على كل الأجزاء الأخرى . . وطننا وطن كامل لا يتجزأ . . هذا المعنى الوحدوى قائم بداخلى . . فالتجزئة والاقتسام غير قائمة فى لا وعى . . حكاية سايكس بيكو فى وجدانى غير قائمة لأنى لا أرى الخطوط المسماة بالحدود . . لا توجد حدود فى داخلى بين مصر وليبيا أو مصر والسودان أو بين أقطار الوطن العربى . . هذه أشياء خارج وجدانى .

- إعلان الدولة الفلسطينية برأيك مشروع تجزيئى ؟

لا . . هو تصدى لمقولة عجيبة فى الطرح الصهيونى ، فهم يقولون دائمًا أنتم عرب والعالم العربى متسع . . فعليه أن يستوعب الفلسطينيين ،

لكن العرب قساة متوحشون لا يريدونكم . . هذا هو الطرح الصهيونى وحين نتبنى التجزئة الآن فى القضية الفلسطينية ، فإنما نتبناها فقط لنسحب البساط من تحت أقدام الإعلام الصهيونى . . نقول لهم لا تتكلموا عن الوطن العربى الشاسع ولكن عن وطننا الذى هو هنا .

نحن نستعمل الإقليمية والتجزئية لإحباط مؤامرة على جزء من وطننا، وليس من أجل تكريس الإقليمية التجزيئية .

الإقليمية هنا مرحلة فرضت علينا ، ونحن والعرب أمام مفترق طرق . . إما أن نتحول إلى أمريكا لاتينية أخرى نكرس التجزيئية أمام ما هو قائم الآن . . أو أن ننتقل إلى مرحلة أرقى ، هى مرحلة استعادة الوحدة . . استعادة الوحدة ليس كمشروع جديد ، فالجديد والطارئ هو التجزئة .

وأنا حين أدعو لاستعادة الوحدة ، فأنا أدعوه لاستعادة ما هو طبيعى لتصفية آثار الاستعمار فى الوطن العربى . . لتصفية آثار سايكس بيكو ، التجزئة برأيى هى اعتراف بحق الاستعمار فى تقسيمنا ؛ لذلك فأنا أفهم الوحدة بشكل مختلف تمامًا ، قد يبدو رومانسياً ، لكنه أكثر واقعية من أى طرح آخر .

ولو كان لدى سلاح وأنا أتجول فى الوطن العربى ، لأطلقته على أول شرطى يحاول إيقافى عند نقطة تسمى حدود، أو يطلب منى جواز سفر .

- يبدو أن الرؤية من الداخل أكثر رحابة .. كيف ترى ثنائية الداخل والخارج الفلسطينى .. ما طبيعة العلاقة بينهما ؟

هناك بالفعل واقع سياسى . . فلسطينيون بالداخل والخارج ، لكن العلاقة ليست تناحرية . . هناك تكامل . . هناك واقعان مفروضان غير

مختارين . . هناك حركتان ، لكن قصيدتى ليست بديلة لقصيدة شاعر فلسطينى آخر بالخارج .

على سبيل المثال بعض أجهزة الإعلام حاولت طرح الانتفاضة ، وكأنها بديل لمنظمة التحرير . . لكننا كنا أول من رفض ذلك وقبل حتى صدور أى بيان من منظمة التحرير . . لأن العلاقة متكاملة ومتجانسة تمامًا . . الداخل والخارج وحدة عضوية . . والتجزئة مرحلة مفروضة ومقصورة ، بل مرحلة غير طبيعية ، فلا يمكن أن تكون حياتى طبيعية ، مادام هناك فلسطينى واحد يعيش حياة غير طبيعية بشكل متردى . . التجزئة مرحلياً لكن كل تطور ينفى إمكانية استمرارها .

- مرة أخرى كيف تكون فلسطينيًا ؟

أنا لست حراً . . ولا طبيعيّاً ، فحياتى مرتبطة بكل الفلسطينيين الآخرين فعلاً . . أثناء القصف الجوى على المخيمات . . أثناء ملاحم صابرا وشاتيلا كنت فى بيت كبير فى الجليل ، أمامى تليفزيون ملون ، وأجلس على مقعد مريح ، وربما كان بجوارى كأس وأنا أشاهد ما يجرى . .

هذا بالتأكيد شىء غير طبيعى . . أنا نفسى لم أكن طبيعيّاً ، فالطبيعى إما أن يكونوا معى أو أن أكون معهم تحت القصف . . من هنا فالعلاقة بين الداخل والخارج هى علاقة واحدة ، علاقة تكامل وترابط لا نستطيع فصل النظرة فيهما .

- ربما هذا يدفعنا إلى حوار شطرى البرتقالة.. إلى رسائل محمود درويش .

قلت فى حديث سابق ما كانت هذه الرسائل تطمح لتجديد أدب الرسالة أو خلق ظاهرة تراسل جديدة . . ببساطة كنا فى السويد ، وكان

لقاؤنا ليومين فقط ، وكان عليه أن يسافر إلى باريس وأنا إلى براغ ، واكتشفنا أنه لا وقت لدينا لمواصلة الحديث ، فاقترح محمود المراسلة لكى نستكمل الحديث . . ومرت سنتان دون مراسلة ، وفكرنا أن نتراسل شعرًا ، فوجدنا ذلك كلامًا فارغًا . وفى أحد الأيام كان هناك موضوع ، فكتب محمود رسالته الأولى ، ورددت ، وواصلنا الرسائل .

- لكنك تبدو الأقوى داخل الرسائل .. تبدو ممتلكًا سلطة الأب على محمود درويش ، الذى غالبًا ما يلقى بأحزانه عليك ؟

هناك أكثر من سبب . . الأول علاقتنا من مرحلة الفترة والشباب . . محمود درويش معروف بصخبه ومناكفته وصداميته . . لكننى أدركت دائمًا أن وراء ذلك إنسانًا طفلاً وديعًا وحزينًا ودمثًا للغاية ، ولأنى أعرف ذلك . . كان طبيعيًا أن أدافع عن محمود الحقيقى .

السبب الآخر هو الوضع الجغرافى . . فأنا مقيم فى الأرض ، وهو بالخارج . . لهذا فهو يضع أحزانه على الوطن أمانة فى عنقى . . أمانة مستردة فى يوم من الأيام .

- إذًا فأنت الأقوى ؟

أنا الأكثر صبرًا ولست الأقوى .

- وكيف تمارس إبداعًا حرًا داخل الأرض المحتلة ؟

الحرية شىء نسبى . فلا توجد حرية مطلقة . . حتى الجاذبية الأرضية تحد من حريتنا ، فأنا مثلاً الآن لدى رغبة أن أطير فى هذا الطقس الجميل وأحط على البرج الجميل . . طبعًا لا أستطيع ، لكن ذلك لا يشعرنى بقصور فى حريتى .

بعض المثقفين يقولون أنت تطبع دواوينك فى حيفا، ونحن لا نستطيع أن نطبعها فى دمشق ، إذًا فأنت حر . . أقول إن هذا الكلام غير صحيح لأنه ينم عن فهم غير صحيح لمعنى الحرية .

بعبارات بسيطة . . أنا أفاخر أننى ألقى قصيدة أهاجم بها إسحاق شامير ، فى قلب تل أبيب . . أفعل ذلك دائمًا لكن حسب هذه الديمقراطية الإسرائيلية يستطيع إسحاق شامير أن يصادر الأرض التى أقف عليها ملقيًا قصيدتى . . هى حرية أسوأ من عبودية . . حرية تقتلع الجذور .

- لكنك تلقى القصيدة وأنت تمتلك إيمانًا حقيقيًا بأنك فوق أرضك ؟

الإيمان وحده لا يكفى . . أجعل مع دعائك شيئًا من القطران ، وأنا لا أملك شيئًا من القطران .

لا تأسيس فى الفن

- يومًا ألقى القبض على فدائى فلسطينى ، نشرت الصحف أن اسمه (سميح القاسم) ومن اعترافه تبين أن الفلسطينى ذلك هو اسمه الحركى، ما طبيعة العلاقة بين الشعر الفلسطينى والثورة ؟

هى علاقة متبادلة . . كثير من المقاتلين يناقشوننا فى الشعر ، نحن أعطينا المقاتلين وأخذنا منهم ، فهم جزء من الحياة . . جزء من الشخصية، ونحن ليست لدينا إمكانية الرفاهية لوضع الحدود بيننا .

- فأنت لا تتصور قصيدة فلسطينية خارج ثورتها ؟

لا أستطيع أن أتصور القصيدة خارج الحياة . . أذكر أن لينين - أهم ثوار القرن ٢٠ - كان حبه العظيم لبوشكين (**شاعر ما قبل الثورة**) ولم

يكن يحب مايكوفسكى . . أيضًا لم يحب لينين موسيقى الثورة ، بينما أحب بيتهوفن .

إن تغيير النظام السياسى يمكن أن يتم فى يوم . . لكن تغير الوجدان يحتاج إلى سنوات وسنوات .

أحب مثلاً أن أشير إلى أننى ثورى شاعر ثورى، ولكن أحب أم كلثوم أكثر مما أحب فيروز . . البعض يقول لى عيب أن تحب أم كلثوم . . يجب أن تحب فيروز ومارسيل خليفة والشيخ إمام . . لكن هذا تلفيق وكذب ، وأنا لا أستطيع أن أزوِّر يومًا مشاعرى نعم (أنا أحب بشكل عميق فيروز وإمام ومارسيل) لكن اجتماع كل هؤلاء لا يمنعنى من أن أميل إلى طرف من صوت أم كلثوم يجيئنى من جهاز راديو على بعد ٥ كليومترات .

إن صوت أم كلثوم وعبد الوهاب القديم والشيخ سلامة حجازى وصالح عبد الحى يشعرنى برغبة فى البكاء . وليس هذا خلل، لكنه شىء طبيعى ؛ فهذا وجدان جيل بأكمله .

- كيف أكرر الحداثة ؟

أكرر أنه لابد من التمييز بين الحداثة والاستحداث بكلام سوقى غوغائى ، إذا استوردنا طائرة فهذا استحداث . . بينما إنتاج وتصميم الطائرة هو الحداثة .

إذا استعملنا الطائرة والفيديو . . فإن هذا لا يعنى أننا أصبحنا حديثين، وإلا كانت السعودية بهذا المعنى أحدث بلدان العالم .

يجب التمييز إذًا بين الحداثة والاستحداث ، ولا شك أن الاستحداث أمر إيجابى لأنه ضرورى من أجل الحداثة .

وعلى مستوى القصيدة ، هل تعنى الحداثة أن نكتب قصيدة على غرار قصيدة اليوت أو سان جون بيرس . . البعض يؤمن أن هذه هى الحداثة أن نبدأ من حيث انتهى الأوربيون ، ولكن هذا الطرح غير معقول فى مجال الفن ، فلا يمكن أن نكون حديثين إلا إذا امتلكنا القديم الموروث .

أنا ضد فكرة التأسيس . . أن نؤسس كتابة جديدة أو نؤسس شعراً جديداً أو رواية جديدة ؛ لأنها فكرة غير ممكنة وغير صحيحة . لا تأسيس فى الفن . . هناك فقط تطوير وتثوير وإضافة . . هذا شاعر أضاف شيئًا إلى من سبقه ، فهو شاعر حديث . وأحب أن أشير أن الإضافة ليست مسألة إقليمية ، وإنما مسألة إنسانية ، وبهذا المعنى أعتقد أن الشعر الفلسطينى هو شعر حديث بكل معنى الكلمة .

* * *